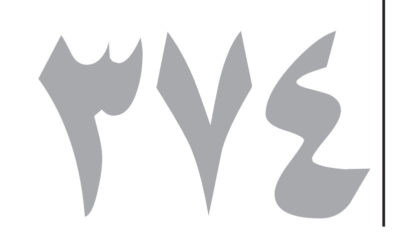
متابعات



كتاب ال

النزعة الإنسانية في عصر التوحيدي

عرض وتقديم: محمد سليمان حسن*

صدر حديثاً، عن وزارة الثقافة السورية، مديرية إحياء ونشر التراث العربي، الكتاب رقم/١٣٣/، تحت عنوان: «النزعة الإنسانية في عصر التوحيدي». الكتاب من تأليف الباحث «محمد علي العجيلي». يقع الكتاب في /٤٣٩/ صفحة من القطع الكبير. نقدم عرضاً له بما يتسق والمعطيات المعرفية للكتاب.

* * *

* أديب وباحث سوري.

مقدمة ...

كتب أرسطو في القرن الرابع قبل الميلاد، أن طبيعة الإنسان ليست فيما ولد عليه، بل الغاية التي ولد من أجلها.. إننا نقرر أهداف حياتنا بأنفسنا بأسلوب أكثر معقولية. فالنزعة الإنسانية فلسفة تؤكد على قيمة الإنسان وقدرته على تحقيق الذات باعتماد العقل، خارج الميتافيزيقا.

كان على النزعة الإنسانية في أوروبا أن تنتظر حتى القرن الرابع عشر، عصر النهضة الأوروبية فلسفة تقدر قيمة الإنسان وكرامته، وتجعله مقياساً للأشياء جميعها. حاول فيها مفكرو عصر النهضة أن يعيدوا توحيد الإنسان في عالم الطبيعة والتاريخ وتفسيره من هذه الزاوية.

وفي نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر أخذ إنسانيو عصر الأنوار بالعثور على النزعة الإنسانية في ذواتهم، سلطة مجردة، سلطة العقل الإنساني. وقد صارت الامتيازات التي أعطوها للإنسانيات (شعر، وبلاغة، وخطابة، وتاريخ، وأخلاق، وسياسة) أهم المواضيع التي أهتم بها الإنسانيون. وهم أي الإنسانيون، على الرغم من اهتمامهم بحرية الإنسان وكرامته، إلا أنهم لم يقفوا ضد الدين، بل ناقشوا الموضوع ضمن منحنيين: الوظيفة المدنية للدين والتسامح الديني.

في الشرق -كان الإسلام نهضة فكرية- بعد مرحلة سابقة من المسيحانية والموسوية. وبرز النص القرآني ذو نزعة إنسانية. لقد كان في الفلسفة العربية ربيبة الفقه وعلم الكلام تيارين: هما: تيار الفلسفة العقلية، وتيار الفلسفة الانتقادية الذي يعتمد العقل الإنساني رائداً وهدفاً. وهكذا ظهر لدينا: ابن المقفع، والنظام، والجاحظ والمعري.

امتاز عصر التوحيدي بأنه ذروة التطور الفكري في الحضارة العربية الإسلامية. واعتبر التوحيدي الناطق الرسمي لهذا العصر الذي عاش فيه في كتبه ورسائله. وكان مزدوج الثقافة بين نقلية يونانية وأصولية إسلامية. إلا أنه في عقلياته أصيب بتهمة الزندقة إلى جانب ابن الراوندي والمعري. فليس بدعة أن ينزع التوحيدي نحو الإنسان كي يجعل منه الموضوع الأساسي لكل تفلسف.. لقد كان

لأساتذة التوحيدي: السيرافي والسجستاني وابن عدي والرماني وغيرهم الدور الأكبر في نزعته الإنسانية. إذا ما أضفنا لذلك الصداقة الروحية والفلسفية مع مسكويه والتي أفضت عن كتاب الهوامل والشوامل.

استمرت النزعة الإنسانية بعد التوحيدي في كثير من الطروحات والمدارس الفلسفية من أمثال «إخوان الصفا وخلان الوفا» وفلسفة المارودي في كتابه «أدب الدنيا والدين».

على هذا سيكون عرضنا للكتاب في جانب فلسفي قدم للإنسانية مساهمة جلية في خضم التيار الفكري الإنساني العالمي، ألا وهو «النزعة الإنسانية عند التوحيدي». وسنقف فيه عند الجانب العربي- الإسلامي فقط، منعاً للإطالة، وتحديداً للموضوع ليس إلا..

* * *

النزعة الإنسانية: نشأتها وتطورها..

يقول الدكتور عادل العوا في كتابه: الإنسان ذلك المعلوم: «أن يعرف الإنسان نفسه» أو «تعرف البشرية ذاتها» مطلب ثقافي قديم حديث، مطلب سرمدي أنجب عبر التاريخ معرفة الأسطورة، ومعرفة الدين، ومعرفة الإنسانيات... هذه المعارف ترعرعت في أحضان النشاط الفلسفي الذي تمخض عن نظرات شتى إلى حقيقة الإنسان باعتباره موضوعاً للمعرفة بشكل عام.

لذا، فإن مفهوم النزعة الإنسانية ليس كلمة لا معنى لها، ولئن لم يقتنع الإنسان بها ويحاول بلوغها فإنه سينحط إلى مصاف البهيمة، وتؤخذ كلمة النزعة في الفلسفة العربية الراهنة على: «المنحى الفكري الأساسي في نظرية أو نظام فلسفي أو تيار

أو مذهب أو حركة. إلا أنها تدل في وجهها الأخص على الطابع المعلوم به، في النظرية الفلسفية.. أو هي تحمل الاتجاه الواعي الذي يسم تلك النظرية».

والإنسانية عند الفلاسفة القدماء هي المنحى الكلي المجرد الدال على ما تقوم به ماهية الإنسان. والدليل على ذلك قول (ابن سينا): «مثل الإنسانية، فإنها في نفسها حقيقة ما، وماهية، ليس أنها موجودة في الأعيان أو موجودة في الأذهان مقوماً لها، بل مضافاً إليها، ولو كان مقوماً لها، لاستحال أن يتمثل معناها في النفس، خالياً عما هو جزؤها المقوم».

وقال أبو حيان التوحيدي: «الإنسانية أفق، والإنسان متحرك إلى أفقه بالطبع، ودائر على مركزه، إلا أنه مرموق بطبيعته، ملحوظ بأخلاق بهيمية، ومن رفع عصاه عن نفسه، وألقى حبله، وسيب هواه في مرعاه، ولم يضبط نفسه عما تدعوا إليه بطبعه وكان لين العريكة لإتباع الشهوات الردية، فقد خرج عن أفقه وصار إلى أرذل من البهيمية لسوء إيثاره».

* * *

آفاق الفكر العربي- الإسلامي في القرن الرابع الهجري..

الإنسان في المذهب الإنساني Humane هو الذي يبدع قيماً توائمه مثل إبداعه قيماً تجاوزه. وهذا هو الموقف الإنساني الذي أخذ بالذيوع والسيادة.. وكما أننا نستطيع أن نكشف عن خصائص الكائن العضوي الحي، نستطيع أن نكشف حقيقة الحضارة في موقفها من الحضارات الأخرى.. فالحضارة الإسلامية لم تأخذ عن الحضارة اليونانية إلا ما ليس بمقوّم جوهري لها.. فالروح اليونانية مثلاً تمتاز بالذاتية واستقلال الذات عن الذوات الأخرى بينما الروح الإسلامية تغني الذات في كل يعلو على الذوات كلها.. أما بالنسبة إلى الدين جوهر الروح الإسلامية فإنه من المتعارف عليه أن كل شيء تنفر منه هذه الروح تعده غير متلائم مع الدين.. وبناء عليه فإن الروح الإسلامية الخالصة، إنما تكشف في هجومها على الروح اليونانية عن خصائها هي ومميزاتها بالذات.. في الحقيقة لم تعد طريقة بيان الأفكار المأخوذة والأوضاع المستعارة في البحث طريقة مجدية إنما ما

فعله الشخص بهذه الأفكار أو الأوضاع ومالم يفعله، وأي النتائج نستخلصها من سلوكه فيما يتعلق بجوهره وطبيعته هو المهم.. لقد جاء الإسلام معادياً للروح الهللينية.. هذا وقد عنى الإسلام بإيجاد عالم من العلوم الدينية والعقلية يشبه عالم العصر المدرسي في أوربا في العصور الوسطى.. لقد كان الإسلام مبعث نهضة فكرية عظمى شاركت في تجارب البشر الفلسفية مشاركة فعالة.. وعلى هذا فإن الأدب العربي، ومن ثم الثقافة العربية، هو الذي أدى إلى ذلك التقدم الحاصل في بعض ميادين العلم.. لقد أصبح الشرق معلماً لأوروبا، نتيجة ترجمة نصوص يونانية من العربية إلى اللاتينية.. هنا يمكن عد النزعة الإنسانية والعلم شيئاً واحداً.. فالنزعة الإنسانية إلى جانب أنها كانت علماً فهي أولاً وقبل كل شيء اتجاهاً روحياً شاعراً بذاته.. الشرق إذن تعوزه النزعة إلى تصوير الذات تصويراً مجسماً سواء عن طريق الفنون والآدب.. لذا فإن طريق النزعة الإنسانية هو الطريق إلى ما هو إنساني شخصي ذاتي، سواء علمياً أم وجدانياً.. في الفكر العربي الإسلامي، النزعة تستند إلى النظرة العقلية للإنسان العربي، التي نشأت نتيجة الأرضية بل البيئة الثقافية والعلمية الإسلامية.. رغم ذلك نرى شخصية مثل (المارودي ت ٤٥٠هـ)، وهو شخصية اعتزالية، حذرت الناس من صراحة أن يعتبروا أقوال النبي الدينية التي يحث فيها على طلب العلم حثاً قوياً تتعلق بعلوم أخرى غير العلوم الشرعية كالعلوم العقلية.. فإن دلت هذه النظرة على شيء فإنما تدل على أن الاشتغال بهذه العلوم يسير جنباً إلى جنب مع الاستخفاف بقواعد الدين ودراسته.. فمن الطبيعي إذن أن يلازم عدم ثقة رجال الدين ممن يشتغلون بعلوم الأوائل، كراهية الكتب التي تتضمن هذه العلوم.. أما بالنسبة للمنطق اليوناني فإن موقف أهل السنة منه أخطر بكثير من موقفهم إزاء بقية علوم الأوائل.

الفلسفة العربية- الإسلامية

لقد عني فلاسفة الفكر الإسلامي بالمسائل الذهنية، مسبغين عليها لبوس النظر الإسلامي العقلي المجرد، غايته التوفيق بين العقل والنقل، وبجدل العلاقة بين الدين والفلسفة يحصل الكمال.

لكــن الأمــور ذهبــت أبعد مــن ذلك. فالصراع الفكري بــين الفلاسفة من جهة وعلماء الــكلام والفقــه والمتصوفة، أرفد الفكر الفلسفي الإسلامي بتيارين: أحدهما فلسفــي عقلي مثلــه: الكنــدي وابن سينا والفارابي. والثاني فلسفي انتقادي، كان من أعلامه المعري والنظام رأس المعتزلة، وابن المقفع والجاحظ.

النزعة الإنسانية في عصر التوحيدي.

يقول النظام: .. مــن كان ذكياً حافظاً فليقصد إلى شيئين أو ثلاثة أشياء، ولا ينزع عن الدرس والمطارحة، ولا يدع أن تمر على سمعه وبصره وذهنه ما قدر عليه من سائر الأصناف، فيكون عالماً بخواص، ويكون غير غافل عن سائر ما يجري فيه الناس».

أمــا الغزالي فإنه يقول: «إذا نظرت إلى العلــم رأيته لذيذاً في نفسه، فيكون مطلوباً لذاته..»أمــا أخــوان الصفا: فقــد أقاموا بدمج العلوم وتنظيمها بشكل يخدم دعوتهم لتوحيــد البشر، وإقامــة الوفــاق، وإزالة الفــوارق في الآراء والمعتقــدات والديانات حتى يصلــوا إلى قيمة الإنســان والصورة الإنسانية.

أما ابن خلــدون فقد أقام فلسفته على اتصال الحكمــة والشريعة على الرغم من تمايزهما.

أبــو حيــان الــتــوحــيــدي.. الإنــســان وعصره:

في القــرن الرابــع الهجــري، تقطعت أوصــال الملك الواسع الأرجاء سياسياً، فآل إلى الضعــف والانحلال، حتــى عدّ الأكثر اضطراباً وفراقــاً ومذاهباً وحركات سرية وتيارات صوفية وإلحادية.

والمفارقــة هــو النمو الفكــري العقلي مقابــل الانحطاط السياســي لتلك الفترة، عاش فيه التوحيدي معاصراً وفاعلاً. وقد أطلــق عليه البعض لقب «الجاحظ الثاني» لمقاربتــه أسلوبــه وتأثــره بأفــكاره. ويعد التوحيدي واحداً من جمعة التراث اليوناني والثقافة الإسلامية.

ما زال نســب التوحيــدي إشكالياً بين الفارسي والعربــي وإن كان يرجح الطرف العربــي. فقد ولد أبو حيان علي بن محمد بــن العباس التوحيدي سنــة /٣١٠هـ) من أبوين فقيرين. وليســ في طفولته وبداياته مــا يشار إليه سوى إنه عاش طفولة معذبة

واكتفى بالدرس والتحصيل، وكان قلقاً متبرماً في حياته. وأخذ من كل علم بطرف من الشريعة والفلسفة واللغة ثم التصوف.

ولما كان برماً بالحياة لجأ إلى الكتب كملاذ فغرق فيها وفي دكاكين الوراقة ومهنة نسخ الكتب. تعددت معارف التوحيدي وتنوعت، لأنه تلقاها على أيدي مفكرين موسوعيين نبغوا في فروع المعرفة والعلم بشتى ضروبها، وكان في مقدمتهم: السجستاني، أبو سليمان المنطقي. والفيلسوف النصراني أبو زكريا يحيى بن عدي فقد أخذ عن السجستاني: الجدل والمنطق والنفس والإلهيات واللغة والبلاغة والشعر.. وعن يحيى بن عدي: علوم الأوائل.

إشكالية الإنسان عند يحيى بن عدي: هو من انتهت إليه رياسة المنطق في زمانه. فقد كان السجستاني أستاذ التوحيدي أحد تلامذته.. فالموضوع الذي طرحه بن عدي هو إشكالية الإنسان بتنوع فعالياته المعرفية التي غدت في لحظة ما، هي الذات والموضوع معاً. فقد أكد في رسالة «تهذيب الأخلاق» ما ينبغي أن يؤكد عليه الإنسان معرفة وأخلاق. فالغاية من معرفة الإنسان إعادة بناء أنفسنا وما يحيط بنا، لذا فإن علم الإنسان سيكون مهمة المستقبل. وهكذا يبدو أن حد الإنسان عند ابن عدي يقوم على مسلمات تتفتح على كونية الإنسان بمعنى إنسانيته، وتنطلق من موقف عقلاني يعترف بقدرة الإنسان العقلية على توجيه سلوكه نحو طبيعته الحقيقية وتقويم ممارساته. وعلى هذا، يكون حد الإنسان عند ابن عدي، هو الإنسان التام الجامع لمحاسن الأخلاق.. ولقد تمهل ابن عدي عند الطريقة التي توصل الإنسان إلى التمام وتحفظ عليه الكمال، وذلك بأن يصرف غايته إلى النظر في العلوم الحقيقية.. وإذا كانت فكرة الإنسان التام ممكنة التحقق بمحاورته ذاته ومحاورة الآخرين، وجب عليه أن يعرف كيفية التعامل مع العالم الخارجي المحيط. وفق العقل الإنساني ومتطلباته. أما ما يعطيها السمة الإنسانية، فهو كونيتها التي تتجاوز الحدود. وما على الإنسان إلا أن يجتهد في تكميل نفسه، وبهذا يتم الارتقاء بالإنسان والإنسانية..

أبو سعيد السيرافي: كبير النحاة

والمتعلمين المعتزلة.. فقد كان يتكلم في القرآن والحديث والأحكام فكان (إمام زمانه، وعالم عصره). وقلده ابن الرومي نعت المتصوف.

علي بن عيسى الرماني: من أئمة اللغة والأدب جمع بين علم الكلام والعربية. وكانت له تصانيف في العلوم والفقه والكلام والنجوم.

أبو حامد أحمد بن بشر المروروذي: عده ابن خلكان إمام الفقه. وقد تلقى عليه التوحيدي أصول الفقه الشافعي. وهو رجل زهد. وله آراء في الفقه والأخلاق وأصول المعاملات وطبائع الناس. ويؤكد التوحيدي تأثره بشيخه المروروذي في تحديده للألفاظ وتعريفه للمفاهيم بشكل عام.

هكذا تتلمذ التوحيدي على كبار علماء عصره في العلوم كأنه النقلية منها والعقلية.. لقد قام التوحيدي بمحاولات شتى للخروج من ضائقته المالية. وكان دمثاً طيب الأخلاق. رغم ذلك، تعرض التوحيدي لشتى المضايقات. فقد نفاه المهلبي من بغداد بتهمة الزندقة.. إلا أن (ابن العميد) أحاطه برعايته، لكنه لم يمكث لديه كثيراً بسبب شخصيته القلقة والمترفعة، مغادراً إلى دار السلام صفر اليدين.. حيث أمضى حياته في جلّها فقيراً بائساً.. ثم التقى الوزير (ابن العارض) وزير الدولة البويهية. إلا أن التوحيدي وقع في خصوم وزيره. فازداد حقده وتشاؤمه، فأحرق ما لديه من كتب ومصنفات. وقد توفي عن مئة وأربعة أعوام على اختلاف.

التوحيدي..

شخصية التوحيدي: سلخ التوحيدي فترة طويلة من حياته في بغداد، ووعى عبقريته. ووقف على أبعاد إمكاناته الإبداعية. لقد كان واحداً من أبرز أعلام الحضارة العربية الإسلامية، وهو من الفلاسفة الذين مزجوا الفلسفة والأدب.. كما أننا نصطدم بقلة المصادر التي تتحدث عن شخصية التوحيدي.. تقوم ثقافة التوحيدي على العقل أولاً وترفدها بالنفس المتصلة بالعقل الأول المتصل بجوهره بالواحد الأحد.. فهو فيلسوف نفساني. كما يتجه نحو الإصلاح الأخلاقي حين يحث على الخير، وينهي عن الشر.. وكان معتزاً بنفسه، معتزاً بكرامته، وكان ذلك سبباً

في فشله سياسياً في علاقاته مع رجالات السياسة.. وكان حفاظاً للعهد معترفاً بالجميل لغيره.. كثير السخط والشكوى.. كان للألم والمعاناة الدور الكبير في إبداعه، مما أدى به إلى التشاؤم، مما حقق عدم الانسجام في شخصيته. الناتج عن التمزق الداخلي والصراع النفسي الذي حال دون الوصول إلى الراحة والطمأنينة.

إنتاجه الفكري: اتخذ التوحيدي من الوراقة والقلم حرفته، وكان حرقه لكتبه، وبعض ما كتب سبباً في عدم وصول إنتاجه كاملاً إلينا. لقد أورد ياقوت الرومي في معجمه ثبتاً بأسماء بعض كتب التوحيدي، فنص على ثمانية عشر كتاباً هي: الهفوات لابن الصابي. الصداقة والصديق، الرد على ابن جني في شعر المتنبي، الإمتاع والمؤانسة، الإشارات الإلهية، الزلفى، المقابسات، رياض العارفين، تقريظ الجاحظ، مثالب الوزيرين، الحج العقلي إذا ضاق القضاء عن الحج الشرعي، الرسالة في صلاة الفقهاء في المناظرة، الرسالة البغدادية، الرسالة في أخبار الصوفية، الرسالة الصوفية، الرسالة في الحنين إلى الأوطان، البصائر والذخائر، المحاضرات والمناظرات.

أما ما لم يشير إليه ياقوت، ووجد في ثنايا كتبه، فهو: النوادر، الكلام في الكلام، الهوامل والشوامل، رسالة في العلوم، رسالة في الحياة، رسالة في علم الكتابة، رسالة الإمامة، المناظرة بين السيرافي والقنائي.

التوحيدي فيلسوف التوحيد:

يقف التوحيدي عند قضية أساسية: «أن الذات الإلهية، هي بمنزلة عين الشمس: كلما ازددت إليها نظراً ازددت عناء أو إذا لم يكن في استطاعتنا أن نحدق في «شمس الحقيقة الإلهية»، فإن في استطاعتنا، أن نستقصي في أبحاثنا حول المخلوقات، وأنواع المذاهب والمقالات.. فكيف اختلف الناس فيما اعتبروه حقاً، وما ظنوه باطلاً، وقد اختلفوا في الجواب، مع أن الحق واحد وليس مختلفاً في نفسه!.

فلسفة التساؤل عند التوحيدي:

حاول التوحيدي العمل على قصية التساؤل، وبالتالي البحث في المصطلح، وقد دفعه ذلك إلى البحث في اللغة لضبط المفهوم ومقايسته مع مفاهيمه الفلسفية في

عمل فكري رائع، كان من نتيجته التمييز بين المفاهيم والمعاني المختلفة، والتي توصل إلى التعبير الدقيق والابتعاد عن التلاعب اللفظي، وبالتالي جدل العلاقة بين اللغة والفلسفة.

التوحيدي وفلسفة الإنسان: لقد جعل التوحيدي الإنسان محور تساؤلاته ومدار تفلسفه. ووجد في معرفة النفس أسمى ضروب المعرفة، واعتبر أن النفس الإنسانية ليست فقط قضية ميتافيزيقية روحية، بل قضية حسية- عقلية (سيكولوجية). فهو يدرس الظواهر النفسية، باحثاً عن عللها وبواعثها، ومن ثم الاهتداء إلى أصول التحليل النفسي قبل فرويد. والإنسان، إذا لم يبق مسيطراً على نفسه وكبح نوازعه، فإنه سيظل متناقضاً مع ذاته، تتجاذبه الأهواء. والإنسان في نظره «هو الشيء المنظوم بتدبير الطبيعة للمادة المخصوصة بالصور البشرية، المؤيدة بنور العقل من قبل الإله».

التوحيدي وفلسفة التشاؤم: يعتبر التوحيدي في نظر العديد من الباحثين، فيلسوفاً متشائماً وهو القائل: «واغرب الغرباء من صار غريباً في وطنه، وأبعد البعداء من كان بعيداً في محل قربه». وكان من أسبابها الإحساس في الحياة بما فيها من عبث وبطلان. وقد ناقش قضية الحياة والموت والانتحار من وجهتي نظر دينية ونفسية. وكان بحثه النفسي على درجة كبيرة من الأهمية في زمنه.

لقد ميز التوحيدي الكثير من الدلائل والقرائن التي تدعم تبرمه من الحياة، وتشاؤمه من الوجود.. فلسفة كانت ثمرة معاناته هو بالذات.

التوحيدي فيلسوف الفكاهة: هل يقود التشاؤم إلى الفكاهة. كمعبر عما يضيق بالنفس سخرية. أم هروباً من التشاؤم إلى الفكاهة؟ لقد أشار التوحيدي إلى الكثير من الأقاويل في مضمار الفكاهة، تدل على اهتمامه بفلسفة الضحك. والضحك فن ابتدعته النفس البشرية في مواجهتها عثرات الحياة بكل صنوفها.

التوحيدي فيلسوف الفن: قد يكون من الظلم أن نرى في فلسفة الفن لدى التوحيدي، قضية بلاغية قوية. وأنا أحيل القارئ إلى كتاب صديقي الدكتور عزت

السيد أحمد بعنوان «فلسفة الفن والجمال عند التوحيدي» للاطلاع والاستزادة. والكتاب صادر عن وزارة الثقافة السورية. فقد قدم التوحيدي الكثير في مجال الفن والجماليات التي تجاوزت مفهوم البلاغة وإن كانت قد استندت إلى فن البلاغة كمنطلق.

النزعة الإنسانية عند التوحيدي.

لم تكن الفلسفة الإسلامية أقل قيمة من الفلسفة اليونانية في توليدها قيمة العقل. ولعل هذا التوكيد برز في النزعة الإنسانية في الاتجاهين الفلسفيين: العقلي والانتقادي. فقد أخضع الفلاسفة في معظمهم النقل للعقل في حدود التصور المنطقي للفكر على الأقل، وساق البعض منهم ذلك إلى الحدود الأقصى.

نستطيع أن نعتبر كتاب «الهوامل والشوامل» أحد أبرز المعطيات الفكرية لهذه النزعة. وهو حوارية بين فيلسوفين هما التوحيدي ومسكويه.

يمثل الكتاب في صورته الحاضرة، محاورة تتضمن مئة وخمسة وسبعين سؤالاً هي (الهوامل) وأجوبتها (الشوامل)، شبيهة بالمحاورات الأفلاطونية. ويؤرخ الكتاب بين (٣٦٧-٣٧٠هـ). لانجد خطة منظمة في تعاقب الأسئلة، إنما فرضته طبيعة الحوار القائم والانتقال بين الموضوعات.

نلحظ من هذا الكتاب روح الصراع الاعتزالي فكرياً، بين موضوعات تبدو متناقضة في نتائجها .ففي قراءتنا لكتابه نستطيع تلمس ثلاث ثيمات راسخة هي: العقلانية الممزوجة بالشعور النسبي والكلي المعاش. والجرأة الفكرية. والميول الثقافية.

التفارق بين التوحيدي ومسكويه في الكتاب يشتمل على تجريدية مسكويه وواقعية التوحيدي، الذي لم يستطع التحرر من ضرورات الحياة في طرحه المعرفي بذلك، يتناول التوحيدي بتفكيره ما يمكن من تجربته الخاصة أن يقبل التعميم.

لقد كان التوحيدي من الجرأة الفكرية أنه اتهم بالزندقة والإلحاد. ولعل مرد ذلك اتهامات باطلة عن الجو العام المصطرع في زمنه. ومن ناحية أخرى قدرته على فهم السياق المعرفي العام في زمنه، وبخاصة السياق الديني التقليدي، مما دفعه إلى مهاجمتهم لتبيان تهافتهم، فجنوا عليه.

علاقة المفكر بالسلطة السياسية عند التوحيدي:

لعل كتاب (الإمتاع والمؤانسة) خير معبر عن هذه العلاقة في كل المجالات: الثقافية والفلسفية والسياسية والتاريخية واللغوية. وقد اعتبره البعض منهجاً في ذلك. ولعل الأمر يعود إلى تصور أبي حيان لدور السلطان ومكانه ومهمته في المجتمع الذي يرأسه. ولعل أهم المبادئ السياسية في نظر التوحيدي مبدأ (اصطناع الرجال) ومنه تتفرع معظم المبادئ الأخرى التي لابد للسلطان أن يلتزم بها. وفي ذلك يتبين مدى ذكاء السلطان في اختيار بطانته أو صحابته. ولا يجوز للسلطان أن يختار أصحابه بالحكم على مظهرهم من دون مخبرهم. وثمة مبدأ يعد مبدأ المشورة وهو مبدأ الأخذ بالحزم وترك الهوينا والوكال إلى الأمور جميعها.

وكان أبو حيان على وعي دقيق بأن دور المفكر مع صاحب السلطان السياسي يتجاوز ما يقدمه له من معارف وآراء إلى حد أن يصبح «رسول خير» بين الأمة وحاكمها. وهكذا عمل أبو حيان على توجيه السياسي نحو اصطناع الناس الشرفاء، فالناس يخوضون في شأن الدولة وسيرة الحاكم ويوجهون الانتقادات. ذلك هو إخلاص المفكر لصاحبه السياسي. إن الفكر السياسي التوحيدي، محاولة جادة للربط بين الفكر التجريدي والتجربة العملية المعاشة.

مقومات ومجال النزعة الإنسانية لدى التوحيدي.

الحديث عن النزعة الإنسانية في كتابات التوحيدي، يتطلب تحديداً معرفياً، وملازمة لما كتب، باعتبار ذلك الأساس في روايته للإنسان بكل أبعاده.

الدارس لمؤلفات التوحيدي يستطيع الوصول إلى رؤية فعل إيمان هذا الكاتب بالخالق. وعنده، أن العَالَم بعد معرفته يقود إلى الله.

إذن نقول: إن التوحيدي يحترس من أن يربط بصورة مطلقة، القيم الإنسانية النزعة بالقيم الدينية. فهو في كتابه (الهوامل والشوامل) بطرح المشكلة بألفاظ لا تجعل

من العسير علينا الاعتقاد بأن الأمر بالنسبة له هو موضوع تفكير عميق موصول. وهو يسأل: ما الذي يدفع الدهري أو الزنديق إلى فعل الخير دون طلب الثواب؟ إن ذلك بسبب خفي في الروح، وبالتالي بسر محفوظ في الذكاء. ويخلص التوحيدي إلى القول: «أترى في هذا كله شيئاً يتصل بالتوحيد».

خاتمة الكتاب.

في هذا التقديم، حاولنا عرض وجهة نظر المؤلف في مبحثه. الذي يؤكد فيه المؤلف على الدور الكبير الذي لعبه «الفلاسفة الأدباء» و«الأدباء الفلاسفة» في تاريخ الفكر العربي الإسلامي. لقد استطاع أبو حيان التوحيدي أن يجمع في فلسفته القول بالفعل، مؤكداً على أهمية الممارسة الحياتية، في تأكيد الجانب النظري للبحث الفكري. وهي قضية تستدعي، إعادة النظر في السمة الملحقة بالفكر العربي الإسلامي والقائمة على أن هذا الفكر، جدلي كلامي مجرد لا فائدة منه. بل إن الأمر يستدعي الوقوف ملياً أمام فلسفة التوحيدي، باعتبارها فلسفة عملية براجماتية من الدرجة الأولى.



- المنهجية والمعاصرة لدى ابن خلدون:

صدر عن اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين، ضمن سلسلة «مكتبة الدراسات الفكرية النقدية تحت عنوان: «المنهجية والمعاصرة لدى ابن خلدون». الكتاب من تأليف الباحث «إبراهيم عبد الله عيسى». ويقع الكتاب في /٢٠٦/ صفحات من القطع الكبير.

- الورد في التراث الشعبي:

صدر حديثاً عن وزارة الثقافة السورية، مديرية التراث الشعبي، الكتاب السابع، تحت عنوان «الورد في التراث الشعبي». الكتاب من تأليف الباحث المتخصص في التراث الشعبي «محمد خالد رمضان». يقع الكتاب في /١١٨/ صفحة من القطع الكبير.

- إشكالية المعنى في الشعر العربي الحديث:

صدر حديثاً عن اتحاد الأدباء والكتّاب اليمنيين، ضمن سلسلة الدراسات الفكرية

والنقدية تحت عنوان: «إشكالية المعنى في الشعر العربي الحديث.. دراسة من المتن السيابي». الكتاب من تأليف الباحث «يحيى الجوبعي». يقع الكتاب في /٢٩٣/ صفحة من القطع الكبير.

- الحكم والأمثال الشعبية في العلاقات العائلية والزوجية:

صدر حديثاً، عن وزارة الثقافة السورية، مديرية التراث الشعبي، الكتاب الثاني، تحت عنوان: «الحكم والأمثال الشعبية في العلاقات العائلية والزوجية». الكتاب جمع وإعداد الدكتور «إحسان الهندي». يقع الكتاب في /٢٢٣/ صفحة من القطع الكبير.

- نظرية المعرفة عند ديفيدهيوم:

صدر حديثاً عن وزارة الثقافة السورية، سلسلة «قضايا فلسفية» الكتاب الثالث للباحثة الدكتورة «إنصاف حمد» تحت عنوان: «المعرفة والتجربة.. دراسة في نظرية المعرفة عند ديفيدهيوم، يقع الكتاب في /٤٤٨/ صفحة من القطع الكبير.

- الشك بين الغزالي وديكارت:

بالتعاون بين اتحاد الأدباء والكتّاب العرب اليمنيين ومؤسسة عبادي للدراسات والنشر في اليمن. صدر كتاب «الشك بين الغزالي وديكارت». الكتاب من تأليف الباحث الدكتور «عبده عبد الله بن بدر». يقع الكتاب في /٢٤٩/ صفحة من القطع الكبير.

- في قديم الزمان:

صدر حديثاً عن وزارة الثقافة السورية، مديرية التراث الشعبي، الكتاب الرابع تحت عنوان: «في قديم الزمان».. دراسة في بنية الحكاية الشعبية. الكتاب من تأليف الباحث «فوزات رزق». يقع الكتاب في /٣٢٢/ صفحة من القطع الكبير.

- علم الاجتماع والتحليل النفسي:

صدر حديثاً عن وزارة الثقافة السورية، كتاب تحت عنوان «علم الاجتماع والتحليل النفسي». الكتاب من تأليف عالم النفس «روجر باستيد» قام بترجمته إلى العربية عن الفرنسية الأستاذ «وجيه أسعد». يقع الكتاب في /٣٧٥/ صفحة من القطع الكبير.

- جدلية النزوح عن الهاوية:

صدر حديثاً في دمشق، عن دار الزمان،

مجموعــة قصصية تحت عنــوان «جدلية النــزوح عــن الهاوية». المجموعــة للقاص الشــاب «فــاتح كلثوم». تقــع المجموعة في /١٣٩/ صفحة من القطــع الوسط. وهي المجموعة الثالثة بعد مجموعتيه الشعريتين: «رقم لأبجديــة القرن». و«زفــير الأحرف الساكنة.

- أيها الكلام:

صــدر حديثاً عــن دار التكوين بدمشق للأديــب الشاعــر والناقد «فخــر زيدان» مجموعة شعرية تحت عنوان: «أيها الكلام». تقع المجموعة في /١٢٣/ صفحة من القطع الوسط. نقتطف منها:

كيف كنت بدءاً.. وما زلت؟

كيف تخرج من مائك والطين؟

كيف تخرج فتنة اللغة

في الشعر والقصّ والفلسفة؟

إن تخرج مني.. أموت

وإن أخرج عنك.. أكتب قصيدتي.

☆ ☆ ☆